



جامعة محمد بوضياف - المسيلة  
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
جامعة محمد بوضياف المسيلة

- لقبه: **حلاب**
- الترخيص: **أدب عربي.**
- القسم: **اللغة والأدب العربي.**
- الهاتف: **07-97-12-16-69**
- اسم الباحث(ة): **نور الهدى**
- الرتبة: **أستاذ محاضر "أ"**
- الكلية: **الآداب واللغات.**
- الجامعة: **محمد بوضياف (المسيلة).**

البريد الإلكتروني: [norelhouda.hallab@univ-msila.dz](mailto:norelhouda.hallab@univ-msila.dz)

- محور المشاركة: **المحور الثالث: قراءة في الأعمال الأدبية والصحفية للإعلامي عياش يحيوي (قراءات تطبيقية مختارة)**
- عنوان المشاركة: **السيرة الذاتية بين الواقع والتمثيل في منجز (لقبش)، سيرة ذاتية لحليب الطفولة لعياش يحيوي.**

عندما يكتب الشاعر مذكراته، فإننا نتوقع منه ما قد لا نتوقعه من الآخرين، كتاب الرواية والقصة، ما عدا إن كانوا يملكون حسا شعريا راقيا، بمقدوره ترقية التفاصيل الصغيرة إلى مستوى أعلى، بحيث لن نميز بين التفصيل والموضوعات الكبرى. كل ما ورد في كتاب لقبش، للشاعر الجزائري الراحل الذي كان يقيم بالإمارات العربية، الأستاذ عياش يحيوي، له أهمية استثنائية. ليس لأهميته الفعلية، إنما لقدرة صاحبه على جعله كذلك، مهما ومثيرا في الوقت ذاته.

يعد كتاب "لقبش" تجربة رائدة في هذا النوع الأدبي -السيرة الذاتية- والذي تم إهماله من قبل كتابنا، فهو كتاب متميز وفريد معرفة ومعجما وتمخيلا وزادا وأسلوبا. فبالرغم من قيمته، كعتبات، في فهم العصر والمحيط ونفسية صاحبه، ومن ثم الدخول إلى نصوصه ببعض الزاد المساعد على تفكيك مختلف الشفرات والمضمرات.

إن كانت هناك حادثة، بمفهوم الأصالة، فإن كتاب لقبش هو تجسيد لهذه الحادثة التي تركز على الذات في تعقيداتها وتعرجاتها، وفي حقيقتها التاريخية التي تفرض منطقتها، دون أن تعتبر المنطق الغيري مبتدأ وخبراً. هناك سرد حميمي في علاقة وصلية بالتراب والملبس والعادات واللعب والجوع والضيعة والناس، وهناك الشعور العميق بهذا العالم الصغير، الكبير في نهاية الأمر في عيون السارد، العالم الذي سيكون متكاً للحياة وللكتابة معاً، ولطبيعة العلاقات اللاحقة.

لقبش ليس سوى جزء منّا، الجزء الذي كان يجب أن نقيم له تماثيل في الذاكرة لتستقيم بعض سلوكياتنا وأعمالنا عندما يقف أمامها شاهداً على الطفولة التعيسة، طفولة أغلب الذين عرفوا نتائج حرب مدمرة لم تترك للأهالي إلا ذلك الخراب الذي لا يمكن أن ينسى. الخراب الذي لم يتم استغلاله في الأفلام والروايات والقصص والمسرحيات، وفي تقويم ذواتنا المنسلخة عن نفسها.

كيف استثمر عياش يحيوي جزئيات طارئة بتلك العبقرية؟ ويجب التأكيد على الطابع العبقرى لهذه المذكرات الفاخرة، بداية من الإهداء إلى ما ورد من مجازات وأخيلة ليست كالجمل التي يمكن العثور عليها في سلة المهملات مع الورق المبلل وأعقاب السجائر والرماد وعلب المصبرات الباردة. أهدى الكاتب مؤلفه إلى: "طفل متسخ اليدين والقدمين يخاف لمس الخبز الأبيض، إلى الدنيا بنت الكلب، وإلى الصمت الجبلي العالي". ويعد الإهداء، في حد ذاته، قصة متقدمة بإمكانها التنبيه إلى الدلالات اللاحقة، وإلى المسار العام للمذكرات.

قد تكون مسألة الاستثمار موضوعاً مستقلاً بذاته، إذ يتضح من خلال إشارات المؤلف، أنه رتب لفعل الكتابة مستندا إلى منطلقات عارفة، كما تحيل على ذلك مجموعة المفاهيم والمصطلحات الدقيقة الواردة في شبه المقدمة، وهو، إضافة إلى ذلك، على بينة من الأهداف، ومن القيمة الكبيرة التي تكتسبها هذه الكتابات: "يمكن اعتبار هذه النصوص شهادة حياة ذات قيمة أنثروبولوجية، لتتبع ما ورد فيها من معلومات ذات صلة بالتراث الاجتماعي والمعنوي والمادي معاً في منطقة جغرافية محددة. ولعل من فجوات التنمية في الوطن العربي التعامل مع الإنسان بصفته كتلة فيزيائية ذات طاقة صماء قابلة للاستثمار، وليس بصفته كائناً تاريخياً وطاقة مركبة متجهة بالفطرة والمعرفة معاً إلى المستقبل، أي أنه يشكل مخزوناً قيمياً شديداً التعقيد، لا يمكن استثماره في الحقل الدلالي الوظيفي السليم إلا إذا تمت دراسة بيئته دراسة استقرائية واستنباطية، من أجل التعرف على سبل التعامل معه، والسبل التي تحيط بقدراته ومجالات استثمارها ومكامن الضعف فيه ومجالات الانتباه إليها."

كان هذا هو الأساس الذي بنى عليه الكاتب نصوصه اللاحقة، بحذق وبعمق، ولست أدري تحديدا كيف جمع بين هذين العنصرين المختلفين في جوهرهما، ما عدا إن كانت هذه الطاقة التوفيقية نتاج تجربة شحذها الواقع والحسّ الشعري في آن واحد. إذ إنّ السرد العاري لا يكفي وحده لنقل نتف عابرة وجعلها أنوية قاعدية، رغم بساطتها، أو رغم قيمتها التي تبدو، من منظورنا، بدهية وليست ذات شأن بالنسبة إلى الذين ابتلعتهم نقاشات المدن التي لا أصل لها.

ينقل لقبش بمهارة حياة ليس من السهل الإحاطة بها بتلك الدقة، وبذلك الوقار المهيّب الذي نلمسه في كتابات أمريكا اللاتينية، وفي الأيام لعميد الأدب العربي طه حسين. هناك في واقعنا أحداث وحالات تستدعي مهارة سردية وتؤدّد للإحاطة بها كمادة، ثمّ لنقلها بأسلوب يرقى إلى مستواها، كيفما كان. أما ما فعله عياش يحيى، فهو شيء من هذا وذاك، وبوعي سردي لا يمكن أن يكون ملقى في الطرقات مع الجمل الذابلة التي يمكن أن تقدم في نهاية اليوم في أسواق الرثاء، بسعر زهيد أو مجانا. وهناك معرفة، الحكايات والمعارف مجتمعة في تشابك غاية في الانسجام والدقة: "تنتمي والدتي مباركة بنت سي نعمان إلى جيل من البدو الجزائريين كان جسرا بين الخيمة وبيت الطين، بين الترحال على ظهور الإبل نحو المنتجعات البعيدة والإقامة قريبا من حقول الشعير والقمح. وقد ظلت ذاكرة هذا الجيل بدوية محضة في منطوقها ومعيوشها.. والدتي قريبة الصلة بوالدي... وكلاهما من منطقة جغرافية ذائعة الصيت هي "الحضنة" جنوب شرق العاصمة الجزائرية... جبل بوطالب شمالها والسبخة الكبرى وبدايات الصحراء جنوبها، وفيها توجد مدينة المسيلة عاصمة المعز بن باديس الفاطمي، ومنجبة الشاعر ابن هاني، والناقد ابن رشيق صاحب كتاب "العمدة" المشهور بالقيرواني لإقامته في القيروان ردحا من عمره، وفيها توجد بلدة "مقرة" التي ينتمي إليها المقري صاحب كتاب "نفح الطيب"، وفيها توجد قلعة "بني حماد"، وهي ما تبقى من حضارة الحماديين الذين أسهموا في نقل باقة من العلوم العربية إلى صقلية وإيطاليا، وفي "الحضنة" أيضا توجد أطلال مدينة "طبنة"، وهي من أوائل الحواضر العربية الإسلامية في المغرب العربي، بناها بأمر من الخليفة المنصور أبو جعفر عمر بن حفص..."

ثمّ ينتقل الكاتب ليدعم مذكراته بسيل من المعلومات الخاصة بالقبيلة والعائلة والأهل والظهر والفخر، بدءا بطفولة العائلة الصغيرة مرورا بحنجرة الجبل الأسطوري ولقبش والكلاب والبقرة الكحلة والمدرسة الأولى وحروف المدرسة ودار الطفولة لأبناء الشهداء وخاتمة الصبي الذي هجر القرية. أما ما يمكن أن يكون دعامة قوية للمذكرات فهو هذا الصدق في التعامل مع تموجات حياتية متباعدة

ومضطربة، وبأناة في الإلمام بالماضي، الماضي الذي يبدو حاضرا ومؤثرا، كأنما يمثل، في قسم كبير منه، الراهن والمستقبل، أو امتداد الذاكرة في الآن، وفي كل بنياتها اللاحقة من حيث إنه يظل قائما بأطرافه وساعاته وذكرياته.

وقد يبدو ذلك واضحا للعيان في عدة صفحات وتلميحات، وفي أجزاء من الكتاب أيضا: "كان الصبي قرية تمشي وتساfer، وكانت الطفولة عامرة بالصمت والضجيج، يهيمن عليها كل كل الماضي السحري. كان إذا جاع ساق الشياه أمامه قريبا من طريق "السواقة" 158، الذين يوزعون "الحيثية" تمرا أو زلابية أو برتقالا، وهي عادة أهل الحضنة، لم تكن "الحيثية" تقدم يدا ليد - في الغالب - بل يرميها "السواقة" على الأرض... كان العالم جميلا ورحبا، وكانت النفس تواقه إلى ما خلف زرقة الجبال... وطلعت شمس أخرى لا يعرفها الصبي في شوارع الإسمنت والكآبة والحديد... كان يسأل نفسه كم من شمس في هذه الدنيا؟ وهل يمكن أن تطلع هنا في المدينة شمس القرية...؟ إنه انهيار العمارة والجغرافيا والشياه و«الحيثية» والزمن القروي في أعماق الصبي المهاجر...

الكتاب في مجمله ينم عن قدرة فائقة على التصوير الدقيق لمسار طفل قادم من فقر القرية الجميل وقناعة الناس. وهو شهادة مهمة لشاعر أدرك قيمة التأريخ للذات في صيرورتها، إضافة إلى مفعول الطفولة وآثارها المستمرة في السلوك والإبداع، بشكل مباشر أو غير مباشر، والأهم هو كيفية القول، الطريقة التي اعتمدها صاحب الكتاب في التعامل مع الأحداث والحالات والتفاصيل المثيرة التي نقلها بأشكال سردية لم تغفل البلاغة والاستعارة وأهمية الخيال في تقويتها.

يبدو الجزء الأول من المذكرات استثناء، وقد يكون الجزآن المتبقيان أكثر إثارة بالنظر إلى القيمة الكبيرة التي أحاطت بالكتاب الأول. إننا، باختصار أمام تجربة لها إمكانات كبيرة في أن تكون نموذجا ناجحا في كتابة السيرة الذاتية، إن لم تكن من التجارب القليلة جدا في الجزائر منذ خمسين سنة من الاستقلال، وهي ظاهرة تحتاج إلى معانيات لمعرفة أسباب عزوف الكتاب والشعراء عن كتابة هذا النوع من الأدب، رغم قيمته المركبة.

يدفع منجز "لقبش" المتلقي إلى معرفة الأحداث الوثوقية من دون عناء، رغبة في محاولة الكشف عن تجليات الواقعي المرجعي للكاتب، وبما تخبره الذات في اصطفاء أحداثها، وفي تعاملها مع الوقائع التاريخية في بداة عنفها على حد تعبير رولان بارت: "إن العنف الحق هو أن تقول: طبيعي أن نعتقد هذا

الاعتقاد، هذا أمر بدهي<sup>1</sup>؛ لأن مصداق الحقيقة قائم على ما يتوصل إليه النظر الدقيق، وبما يثيره فينا الوجود الحقيقي المستمد من مفهومي الشدة والامتداد، أو قياس الشدة والتوتر على نحو ما نتطرق له سيميوطيقا التوتر التي تصف "مجموعة من الظواهر المركبة في ضوء نماذج مركبة كذلك".<sup>2</sup>

بمعنى أن هذه الظواهر تتميز بانسيابها في الزمان والديمومة والدلالة، مثل: الهوية، والزمان والحساسية، والوجدان والحضور...ويقصد بالنماذج المركبة وجود مفاهيم متداخلة مع مفاهيم أخرى، كتداخل الشدة مع الامتداد وتداخل الحسي مع المعرفي، وتداخل المنظور الداخلي مع المنظور الخارجي.<sup>3</sup>

لقبش، بدارجة الشرق الجزائري، هو الطفل المتسخ الحافي العاري ذو الشعر الكث، أي ذاك الذي كناه، نحن جيل الاستقلال، الذين خرجنا إلى الدنيا بكل الفقر والهَمّ والتشردّ والعراء. وهو تعبير عن مرحلة من مراحل الجزائر التي لا يمكن إغفالها، مرحلة البؤس الأعظم الذي وسم فترة أغفلناها أدبيا، رغم جمالياتها الخاصة.

إن كانت هناك حادثة، بمفهوم الأصالة، فإن كتاب لقبش هو تجسيد لهذه الحادثة التي تركز على الذات في تعقيداتها وتعرجاتها، وفي حقيقتها التاريخية التي تفرض منطقتها، دون أن تعتبر المنطق الغيري مبتدأ وخبرا. هناك سرد حميمي في علاقة وصلية بالتراب والملبس والعادات واللعب والجوع والضيعة والناس، وهناك الشعور العميق بهذا العالم الصغير، الكبير في نهاية الأمر في عيون السارد، العالم الذي سيكون متكأ للحياة وللكتابة معا، ولطبيعة العلاقات اللاحقة.

لقبش ليس سوى جزء متآ، الجزء الذي كان يجب أن نقيم له تماثيل في الذاكرة لتستقيم بعض سلوكياتنا وأعمالنا عندما يقف أمامها شاهدا على الطفولة التعيسة، طفولة أغلب الذين عرفوا نتائج حرب مدمرة لم تترك للأهالي إلا ذلك الخراب الذي لا يمكن أن ينسى. الخراب الذي لم يتم استغلاله في الأفلام والروايات والقصص والمسرحيات، وفي تقويم ذواتنا المنسلخة عن نفسها. كيف استثمر عياش يحياوي جزئيات طارئة بتلك العبقرية؟ ويجب التأكيد على الطابع العبقرى لهذه المذكرات الفاخرة، بداية من الإهداء إلى ما ورد من مجازات وأخيلة ليست كالجمل التي يمكن العثور عليها في سلة المهملات مع الورق المبلل وأعقاب السجائر والرماد وعلب المصبرات الباردة.

1- أليكس ميكشيللي، الهوية، ترجمة، علي وطفة، دار النشر الفرنسية، مع دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، ط1.

2- جوزيف جاسترو، التفكير الشديد، ترجمة نظمي لوقا، مطبعة السعادة، ط1، 1957.

3- جيد، أندريه، إذا ما الحبة لم تمت، سلسلة "فوليو"، باريس، 1972.

أهدى الكاتب مؤلفه إلى: "طفل متسخ اليدين والقدمين يخاف لمس الخبز الأبيض، إلى الدنيا بنت الكلب، وإلى الصمت الجبلي العالي". ويعد الإهداء، في حد ذاته، قصة متقدمة بإمكانها التنبه إلى الدلالات اللاحقة، وإلى المسار العام للمذكرات.

يقدم لنا الكاتب شخصية "لقبش" على أنها شخصية بائسة، تعيش قدرها المخضب بنسيم ثورة التحرير التي ناضلت من أجل أن يعيش المواطن عالما ورديا، فيه من النسيم العليل ما يمكن أن يحقق المستحيل الذي يتجاوز دراما الماضي؛ ويستشرف عالما حالما، انطلاقا من الواقع المتخيل، وهو ما بنت عليه ثورة التحرير مبادئها بديلا عن قمع المستعمر للواقع المغتصب بالطغيان؛ ولكي يعيش الجيل الواعد كرامته، ويمارس طقوسه لتحقيق أفق التوقع، وهي الصورة النمطية التي رسمتها طفولة "لقبش" في لا وعيها بصورة تخيلية في تساق مع الصورة النمطية التي حملها الثوار الذين قادتهم عزيمتهم إلى ممارسة فعل التخيل؛ لبناء مستقبل زاهر لهذا الوطن؛ بسواعد أبنائهم في صورة "لقبش" الذي كان شاهدا ومشهودا، شاهدا على مجريات أحداث الثورة بطفولتها البريئة، وبأيامها المشهودة في شقيها الذاتي والموضوعي.

وفي "لقبش" تتداخل الحقيقة مع الخيال بسرد مفعم بالإثارة، حتى لكأن القارئ يصعب عليه معرفة أيهما أقرب إلى وصف الوقائع والأحداث، وأيهما أقرب إلى السرد الحكائي، وهو ما قد يجعل منها رؤيا سردية مفعمة بالإثارة .

وأحسب أنه ما من أحد يقرأ "لقبش" من الجيل الأول بعد استقلال الجزائر إلا ويجد فيها النصيب

الأوفر من ذاكرته الجمعية، على الرغم من أن الشخصيات الموظفة كلها حقيقية تنتمي إلى الحقبة التي مر بها مع عائلته وأصدقائه، وليس غريبا في ذلك إذا لم يجد القارئ في مساهم ما يشير إلى دلالات معينة؛

لأنهم خلقوا ليكونوا شخصيات تاريخية، وليس شخصيات فنية؛ بما ينطلي عليه التصوير الخيالي .

أضافة إلى ذلك أن السارد لم يختار شخصيات رمزية، بقدر ما أراد أن تكون معظم شخصياته من

حياة الشظف بكل ما تعنيه الأصالة والبساطة في حياته وتجاربه، وبصراحة جريئة حتى عندما يوظف شخصية الـ "فلان الكبير". وقد يتفاجأ القارئ عندما يعرف أن "فلان الكبير"، من عائلة الصبي، الذي قرر

بحسب ما صرحت به أمه ذات مرة: "ستذهب إلى" دزاير "تواصل فيها دراستك... هكذا قرر" فلان

الكبير "ومن دون حرج يشرح لنا الكاتب هوية هذه الشخصية المرموقة؛ ليعبر عن مدلول المكانة العائلية التي حظي بها الصبي من دون جدوى؛ وهو ما من شأنه أن يزيد من احترام ما مر به الكاتب في حياته، غير مبال بما يمكن أن يسبب له من ضيق، خاصة وأن "فلان الكبير" هو العقيد محمد الصالح يحيوي عضو مجلس الثورة في عهد الرئيس هواري بومدين، والمرشح لرئاسة الجزائر بعد وفاة بومدين<sup>4</sup>.

وقد يكون من الأجدى أن نشير إلى الفائدة الأوفى دلاليا التي يمكن للقارئ أن يجنيها من عدم وفاء "فلان الكبير" هي استنطاق هذا الموقف من شخصية مرموقة تنتكر لحبل الوريد، بعدم احتضان إحدى فصائل دمه، وعشيرته، وأقرب الناس إليه وهي الشخصية التي أسهمت في إضرام حلم الاستعمار، ولم تستطع حضان حلم واثجة رحمه، وأصرة صلته.

وما أفيد أن يكون الكاتب قادرا على التمكين من تصوير حالة كهذه، بما يمكن أن يثير في المتلقي شغفا يستحق معرفته في حق شخصيات كانت تعد من أساطين البلاد، خاصة وأن "فلان الكبير" هذا كان أحد أبرز المساهمين في قتل حبال السياسة، وفك الخيوط المشبكة في البلد. وقد لا يصدق

القارئ أمام حقيقة ما رسمه لشخصية "فلان الكبير" وزوجته التي كانت تضج منه، وتتوجس به شرا، حين كان يتردد على زيارة البيت، فما كان منها إلا أن نصبت له تهمة سرقة" ثياب الأمير المدلل طارق ابن فلان الكبير، واستقبلته صاحبة الشأن بالغضب الحاد والعتاب الجارح، كان أمامها يشبه أرنابا ضعيفا محاصرا بالمخالب والرصاص على هضبة عارية. وتحت وابل من الاتهامات والكلمات النابية، انهار الصبي مغميا عليه... حين استيقظ وجد نفسه في الدهليز السفلي للفيلا وحول رقبتة حبل، ويدها مصفودتان، كان الشاب الطائش يمارس عليه القهر والصفع، وأطلق سراحه في ذلك المساء<sup>5</sup>.

<sup>4</sup>- لقبش، ص132.

<sup>5</sup>- لقبش، ص74.

ليس في ذلك من شك بأن الكاتب أراد أن يعرض أهم الأحداث المؤثرة في حياته، وإذا كانت بقية الأحداث في "لقبش" تعد عاملاً مشتركاً بين الكثير من أنداده، فإن ما ورد سرده مع "فلان الكبير" يخلق قيمة دلالية فريدة من نوعها في مسيرة الجزائر السياسية بعد الاستقلال، لم نسمع عنها إلا مع الرئيس الراحل هواري بومدين الذي كان يرفض ربط مساعدة عائلته بموقعه، لكن ما وقع لشخصية "لقبش" مع "فلان الكبير" أحدث في وعي المتلقي صورة غير المتوقع المدهش، فيما تعنيه أحداثها من الاستهانة بأبناء الشهداء، خاصة من ذوي النسب، وجرح مشاعرهم حتى من أقرب الناس إليهم، وهو ما عبر عنه الكاتب من دون قناع، أو تزويق "إن ما حدث يشكل في ضمير" الحضنة "وأهلها انهيار قبة عالية، وهل من شرف بعد سقوط القبة"<sup>6</sup>.

وفي ضوء ذلك فإن ما حدث لشخصية "لقبش" من أحداث غير متوقعة يدخل ضمن سياق سيرة الاعتراف الذاتي المدهش بأصوات متعددة، أو كما عبر ميخائيل باختين عن جزء كبير من مثل هذه الأحداث بـ "الر واية البوليفينية، أو بما يشبه كتاب "أنا من القرية المحروقة". وليس في وسع المتلقي إلا أن يبرهن بالدليل أن صورة "لقبش" حقيقة، وأكثر من الحقية ذاتها، وفي المقابل إنها حلم حقق ذاته، بعد أن تجرأ على رسم الصورة الجامحة، بما لا يمكن ردها، لطفولة حانقة في داخلها، بريئة في ظاهرها، حين كانت تذعن، بعفوية تلقائية، مع مجريات الأحداث اليومية التي كانت تخبئ له واقعا آخر، أصبح فيما بعد إكليلا من الأزاهير على تاج مستقبله عجنه من الطحين الأسود "الرطابية" والرقدة، على الرغم مما أنفقه من حصيلة جهيدة، مثقلة بكلفة الكدح والمكابدة، بعد أن عجنته صروف الدهر وشدائده. وقد نجد في هذا السرد ما يصدق عليه قول فرانسوا مورياك: "معللاً إهماله كتابة مذكراته: أليس السبب الحقيقي وراء تكاسلي أن رواياتنا تعبر عن جوهر ذواتنا. وحده التخيل لا يكذب، فهو يفتح باباً خفياً على حياة المرء، تلج منه في مأمن من كل رقابة روحه المجهولة.

---

<sup>6</sup> - لقبش، ص137.